بالذات، فهي ضحية تعكس قيماً متدهورة آن لها أن تتغير. أمّا مريم، فهي ليست فرداً، وهي لاتعكس فئة اجتماعية ضيقة حكمت عليها قيم هذا المجتمع بالانتحار بل هي الجزء الأكبر من الشعب الفلسطيني. هذا الجزء الذي، وإن لم يتواطأ مع العدو، الاّ أنه يقبل الحياة العفنة التي تقدمها له، فينساق فيها سنة بعد سنة ولا ينبهه إلا خروج حامد عبر الصحراء، أي اندلاع الثورة المسلحة؛ إذ ذاك فقط يبدأ بالتململ ويشعر بضرورة التخلص من القيود الداخلية التي تشده الى وضعه العفن وتقتل فيه القوى المتحفزة نحو المستقبل. وما قلناه عن مريم يمكن أن نقوله عن العاشق، فهو عندما داس على النار لا يشبه جان فالجان في قصة البؤساء حين كوى نفسه بالنار، ولا أي بطل روائي له من الصلابة ما يجعله يقوم بعمل غير مادي، وإنما هو الشعب الفلسطيني بأكمله في تحديه لكلّ العراقيل وفي تضحياته التي تشبه الخوارق.

لقد استطاع غسان كنفاني، في تصويره للشخصيات، أن يجعلها في الوقت نفسه شخصاً بعينه ومئات الأشخاص، ففي قسماتها وصراعاتها النفسية وتطورها الداخلي، ما يجسم تكامل الشخص الواحد ويعكس تنوع المجموعات. وقد برهن بهذا عن بحثه الدائم عن الجماعي الكامن في الفرد، وعن ايمانه بأن امكانات الفرد لا تتجلّ إلاّ في حياته الجماعية، ويكشف هذا عن نظرة عميقة للواقع ترفض السطحية والرؤية الخطية أو التجزيئية للامور وعندما نتأمل روايات غسان نجد ان هذه النظرة التي اثرت في تصويره الشخصيات قد انعكست أيضاً في تحديده للاطار المكاني والزماني في الرواية.

فنحن لا نجد طريقة قارَّة استعملها في كلّ رواياته، بل انّه ينتقل في تصوير الاطار من تحديد الدقيق المجزء الى التحديد الفضفاض الذي لا تبرز منه إلاّ المعالم الكبرى. ففي تحديد الاطار المكاني في عائد الى حيفا، مثلاً، يعمد غسان كنفاني الى وصف شوارع حيفا وصفاً دقيقاً وكذلك يصف منزل البطلين، بينما في رواية الأعمى والأطرش، لا نعرف أكثر من أن البطلين يعيشان في مخيم، وليس هنالك ما يساعدنا على معرفة اسم هذا المخيم وموقعه؛ وبقية الروايات تتفاوت أيضاً في مدى تصويرها للاطار. ودون أن نلجأ الى استعراض ذلك نستطيع القول: ان غسّان كنفاني لا يطنب في وصف المكان إلاّ إذا رأى أنه يحمل معنى من المعاني، فهو لا يستعمله كمجرّد اطار للأحداث بل يحمله معان أخرى، ويهمله عندما لا يرى فائدة في استخدامه. كما أن من أهمّ صفات الاطار المكاني أنه لا يمثل عنصر ثبات، فهو كثير التغيير ففي رواية «رجال في الشمس» ينتقل الأبطال من فلسطين الى الأردن الى بغداد الى الكويت، وفي روايته «العاشق» ينتقل البطل عبر ريف فلسطين ولا يكاد يستقر في مكان، وكذلك حامد في ما «تبقى لكم». فهو، أي الكاتب، يبدأ الرواية بالخروج من المكان الثابت الى الحركة. مكان واحد يتكرّر في روايات غسان، والمكان الذي يبدو أكثر ثباتاً هو المخيم، وهذه السمات ليست غريبة في أدب شعب ضيع الاستقرار المكاني وأصبح يوجد حيث لا يريد، ويمنع من المكان الذي يطمح الى الوصول اليه، كما أنّ مجرّد وجوده في مكان ما يمكن أن يشكل خطراً على حياته. ان الفلسطيني يطرد ويستضاف ويستقر ويعمل وينتقل دون ارادة حقيقية منه وكثيراً ما يمثل انتماؤه الى فلسطين حجة مطاردة له.

ان وضعية التشرد التي يعانيها الشعب الفلسطيني تجعل علاقته مع المكان علاقة